١ - اشكالية الفكر الشرقي

- مقدمة البحث :

يجدر بنا قبل أن نشرع في دراسة الحضارات الشرقية القديمة، أن نحدد بعض الخصائص الأساسية التي اتصف بها النتاج الفكري الذي أوجده المفكرون في تلك الحضارات، علماً بأن خصائص الفكر الشرقي هذه كانت القاعدة الأساسية التي ارتكز عليها الكثيرون من أجل رفض هذا الفكر وسلبه حقه في الريادة الفلسفية، أو التهوين من قدره في تاريخ الفلسفة.

وفيما يلي تحديد لأهم الخصائص التي اتصف بها النتاج الفكري في تلك الحضارات .

أولاً – أن الفكر الشرقي القديم هو فكر اسطوري:

فالفكر الشرقي القديم، قد ألبس ما توصل إليه من مفاهيم بأثواب تصورية ورمزية، كما عبر عن أفكاره وتصوراته الأساسية بكلام مكثف وذلك على شكل حكم وأمثال وبطريقة بلاغية وشعرية صرفة.

ثانياً – أن الفكر الشرقي القديم ، ارتبط بالدين ارتباطاً وثيقاً :

ففي الحضارات الشرقية القديمة لم يكن هناك تمييز أو فصل بين الأفكار الشرقية القديمة وبين أديانها. بل كان الفكر و الدين صنوان لا يفترقان ،إنهما واحد.

وفي الحقيقة لم يقتصر الفكر الشرقي على امتزاجه بالدين فقط ،بل كان هناك مزج لكل من العقائد والأخلاق والأعراف والأساطير والسحر واتجاهات السلوك والتفكير،كل هذا النتاج الفكري كان يمتزج مع بعضه البعض في وحدة واحدة.

وهنا تكمن صعوبة البحث في الفلسفة الشرقية، فالبحث عن هذه الفلسفة يستلزم التنقيب بين تراث متراكم ومتداخل ومتشعب ،تراث تمتزج فيه العقائد الدينية والموروثات الأسطورية.

ثالثاً – الفكر الشرقي فكر مرتبط بالحياة :

فالمفكر الشرقي لم يقم بأبحاث فكرية صرفة،و لم يتجه كذلك إلى وضع نظريات مجردة بعيدة عن التطبيق، بل على العكس تماماً،كان المفكر الشرقي يعيش فلسفته ويحققها .ولهذا فإن الفلسفة الشرقية لم تكن"أمراً مجرداً متسماً بالطابع الأكاديمي،أو لا يربطها كبير صلة بالحياة،وإنما ينظر إليها باعتبارها المشروع الأكثر أهمية وجذرية للحياة"[١].

وانطلاقاً من تلك الخصائص أقام الكثير من الباحثين حداراً عالياً بين الفكر الشرقي وبين الفكر الغربي، واعتبروا بأن الفكر الشرقي خالٍ تماماً من أي سمة فلسفية وبعيدٌ كل البعد عن مجال التفكير النظري، وحجة هؤلاء الباحثين في هذا تتمثل في تأكيدهم على أن العقل والقدرة على التفكير والتأمل بالإضافة للقدرة

---

١ - كولر (جون) : الفكر الشرقي القديم – ترجمة /كامل يوسف حسين – مراجعة / إمام عبد الفتاح إمام – الكويت – سلسلة عالم المعرفة – العدد ١٩٩ – ١٩٩٥ – ص٢١.

Scanned by CamScanner

على طرح أسئلة واستخلاص أجوبة،وذلك ضمن اطار من الإنفصال الذهني عن قدسيات الدين هي السمات الأساسية التي ميز الفلسفة،وبالتالي هي التي وضعت الفكر الغربي في وضع يميزه أشد التميز عن الفكر الشرقي.

ومن أشد المؤيدين لهذا الرأي "رسل" و "ريفو".

أما "راسل" فيقول :"إن الفلسفة قد بدأت حين طرح المرء سؤالاً،وعلى النحو ذاته يبدأ العلم، ولقد كان أول شعب أبدى هذا النوع من حب الإستطلاع هم اليونان، فالفلسفة والعلم كما نعرفهما اختراعان يونانيان ،والواقع أن ظهور الحضارة اليونانية التي أنتجت هذا النشاط العقلي العارم، إنما هو واحد من أروع أحداث التاريخ،وهو حدث لم يظهر له نظير قبله أو بعده ،ففي فترة قصيرة فاضت العبقرية اليونانية في ميادين الفن والأدب والفلسفة بسيل لا ينقطع من الروائع التي أصبحت منذ ذلك الحين مقياساً عاماً للحضارة الغربية"[1].

أما "ريفو" فيقول:" إن فنوننا وعلومنا وفلسفتنا وجزءً من نظمنا ترجع أصولها إلى اليونان، وهو أننا كثيراً ما ننسى ذلك، إذ لولا اليونان لكان من المحتمل ألا تكون لنا قواعد للغة والرياضة ولا للمنطق ولا للطب ولا للقانون ولا للفلك... وهم قد صاغوا أغلب الفروض الهامة التي يعيش عليها تفكيرنا ،أما المعتقدات التي تؤلف هياكل ديننا لم تكن تبرز يوماً إلى الوجود لو لم يمهد لها اليونان"[2].

وفي الحقيقة هناك من هم أقل تطرفاً من هؤلاء،مثل "ألكسندر" و "زيلر" ، فهذين المفكرين لم ينكرا وجود أفكار فلسفية في بعض الحضارات الشرقية،وإنما رفضا القول بوجود أي تأثير شرقي على الغرب.

فألكسندر يذهب إلى القول بأنه :" إذا اعتبرنا بأن الفلسفة هي البحث المنظم في ماهية الأشياء فإن مكانها الأصلي سيكون في بلاد الإغريق، - ولكنه يضيف قائلاً – وبقدر ما نعرف فإن الهنود هم الشعب الوحيد مع الإغريق الذي كان عندهم ما يمكن أن يعتبر فلسفة ،ولكن على الرغم من هذا فإنه - من جهة- لا يوجد بين الباحثين من يعتقد بأن الإغريق قد أخذوا فلسفتهم عن الهند، بل على العكس من ذلك تماماً ، ومن جهة ثانية إن الأفكار الموجودة في الأوبانيشاد "Upanishad"*

رقم 2

---

١ - راسل (برتراند) : حكمة الغرب – ترجمة / د.فؤاد زكريا – عالم المعرفة – العدد ٦٢- ١٩٨٣- ج١ - ص ٢٢.

٢ - ريفو (أليو): الفلسفة اليونانية (أصولها وتطورها) – ترجمة /د.عبد الحليم محمود – القاهرة – مكتبة دار العروبة – ب.ت –ص٢٤.

* - الأوبانيشاد Upanishad : كلمة سنسكريتية ،دخلت اللغة الإنجليزية في العام ١٨٠٥، وهي تتألف من مقطعين :أوبا UPA تعني قرب من ، ونيشاد NI-SHAD تعني جلس ،والمراد "جلس قرب المعلم"، ويقصد بها في الأدبيات السنسكريتية محاورات تأملية متنوعة ، تشكل قسماً من الأدب الهندي.[الفيدا VEDAS كلمة سنسكريتية مشتقة من الأصل فعل VED تعني "عرف" : والمقصود الكتب المقدسة الهندوسية الأقدم،والتي تضم أربعة أسفار هي الريج فيدا Rig Veda- والياجور فيدا Yajur Veda: - وأتهوا الأرفيدا الذي يعرف بسفر السحراء والذي يضم نصوصاً يفسرها البعض على أنها مادة للرقى السحرية .انظر، كولر (سوزان) : الفكر الشرقي القديم – مرجع سابق - ص٣٥.] وهي تضم مائة وثمان محاورات بين معلمين وحكماء كبار وتلاميذهم صيغت فيما بين ٨٠٠ و ٥٠٠ ق.م ،وعلى الرغم من إلحاقها بالأدب الهندي فإنها ليست بالضبط شروحاً للأسفار الهندية الأربعة ،حيث تعبر عقائدها الخاص . المرجع السابق – ص ٣٥.

Scanned by CamScanner

والبوذية "Buddhism" *، وهي أفكار هندية أصلية ، لم تكن أفكاراً فلسفية بالمعنى الدقيق ، بل هي أفكار صوفية[3]. وكذلك يرفض هذا الباحث أن يكون للعلم أو الدين الشرقي في مصر وبابل أي تأثير على أفكار الإغريق، ويعزو أصالة اليونان إلى ظروفهم الجغرافية ومجتمعهم المعقد.

أما "زيلر" فإنه من جهة أولى يؤكد بأن الفلسفة هي ابتكار إغريقي صرف وأن هذا الابتكار لم يشارك فيه أحد،ومن جهة ثانية يرى أن الصينيين والهنود قد اقتربوا من التفكير الفلسفي،إلا أن اللغة التي استخدموها كانت صوفية أكثر منها فلسفية، كما أن الأنظمة الفكرية التي أنتجها المفكرون في الهند لم تنفصل عن الدين أبداً. ومع أن زيلر يؤكد بأن المرحلة البدائية للفلسفة اليونانية كانت متأثرة بالتصورات الصوفية الموجودة في الديانة الأورفية ⊕ إلا أنه قد شدد على أن المفكرين في القرن السادس (ق.م) قد طوروا

رقم 3

---

* - البوذية "Buddhism" : المذهب الذي قال به جوتو سدهارتا بوذا في شمال الهند في القرن السادس ق.م،واستهدف في جوهره التحرر بنور البصيرة ، واعتمد التأمل للوصول إلى حالة النيرفانا .انظر المرجع السابق – ص٤٢.والنيرفانا Nirvana : كلمة سنسكريتية ، يعود استخدامها في اللغة الإنجليزية إلى عام ١٨٣٦ ،... وهي تتألف من مقطعين : ر Nir بمعنى لا حمد ،وفا Va تعني مهب الأمر الذي تجعل من الكلمة تعني في مجملها "الانطفاء" أو " الإخماد " ، أي الهدف البوذي المتمثل في الوجود الخالي من المعاناة ، حيث تسعى البوذية إلى الوصول إلى حالة سامية من التحرر عن طريق إخماد رغبات الفرد ووجوده .انظر . المرجع السابق – ص ٢٠٢.

3- Alexaunder (A B D) Ashort history of Philosopy -3rd. Ed . Glasgow -1934 -p.7.

⊕ - الديانة الأورفية :"هي نحلة واسعة الانتشار تتصل بالإله ديونيسوس،الذي كان في الأصل من آلهة تراقية،ثم أصبح إله الخمر والخمرة والخمر عند الإغريق،والأورفية نسبة إلى أورفيوس Orpheus الذي يرجح إنه رجل حقيقي،وإن كانت أغلب المعارف عنه قد انتقلت إلى الأساطير بصلة،[وقد كان أورفيوس شاعراً وموسيقياً وواعظاً دينياً ، ...وهو المعلم والنبي الذي يعرف الأسرار ويفسرها مثل أصل الآلهة وطبيعتها والطريقة التي ينبغي على الناس سلوكها في الدنيا والآخرة ،والقواعد التي يجب أن تجري عليها النفس لكي تبلغ مقرها الصحيح، وكان يعلم تلاميذه رقي وتعاويذ تقيهم الشر والسوء،وقد أشار أفلاطون و أرسطو إلى هذه الجماعة .انظر . الأهواني (أحمد فؤاد) : فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط – القاهرة – دار احياء الكتب العربية – ١٩٥٤ – ط١ – ص ٢٧.]وقد تأثر أورفيوس بحكماء الشرق ، إلا أنه حول ديانة دين ديونيسوس التي جاءت من آسيا أو من مصر مما يلائم الروح اليونانية ،مستمداً بعض العناصر الصحيحة وجاعلاً منها وسيلة للتهذيب وهداية للنفس" انظر الألوسي (حسام الدين) : مواكب الفلسفة قبل طاليس "من الميثولوجيا إلى الفلسفة عند اليونان – بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع – ١٩٨١ – ط٢ – ص ٢٣٩ . ويتلخص مذهب أورفيوس " في أصل العالم وخلق الكون وحقيقة الإنسان : بأن المبدأ الأول وهو الزمان، وقد نشأت مع الزمان الضرورة وهي قانون القضاء والقدر الذي يسيطر على الكون بأسره ويضم أطرافه ، ثم أنجب الزمان الأثير والعماء والظلام ، ثم يشكل الزمان بيضة في الأثير ولما تفتحت البيضة خرج منها فانس Phanes أو النور، وقيل إن البيضة انفلقت نصفين صار أحدهما السماء والآخر الأرض.أما النور فهو أول ما أنجبت الآلهة وهو خالق هذا الكون وجميع ما فيه من كائنات .ومن أسمائه زيوس وديونيسوس (الخمر) وأبوروس (الحب) وبان (التناسل) ومينيس (العقل) . ويعتبر مبدأ تمايز النفس عن الجسم من أهم مبادئ الأورفية ،فقد اعتبروا أن النفس تعد سجينة في البدن وهو بمثابة القبر لها .كما أن النفس قد جاءت إلى هذا البدن كعقوبة لها على تلك الخطيئة الأولى التي ارتكبها الجنس البشري إذ أكل التيتان لحم ديونيسوس ،وقد نشأ الإنسان حينما جمع زيوس رماد التيتان وخلق منه الإنسان ،فأصبح مركباً من طبيعتين ، الإثم والشر التي ورثها عن التيتان ، والطبيعة الإلهية التي أخذها عن ديونيسوس . ولما كان وجود النفس في البدن في نظر الأورفية جاء لتنفيذ عقوبة ،فليس الانتحار مشروعاً. إذ يجب أن تظل النفس في رفقة البدن حتى تستكمل العقوبة المفروضة عليها ، وعليها أن تتبع في حياتها في هذا البدن قواعد معينة من الطعام والشراب ،وأن تطهر نفسها بالعبادات والزهد حتى يمكنها أن تتخلص من عجلة الميلاد (التناسخ) وتعود مرة أخرى إلى الصحبة الدائمة للآلهة. انظر . النشار (مصطفى) : المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية – القاهرة – دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع – ١٩٩٨ – ص ٢٨ ،وما بعدها.

Scanned by CamScanner

ما أخذوه بطريقة تتفق مع سماتهم العقلية. فاستبدلوا التصورات الأورفية للعالم بنظام عقلي من الأفكار،وهذا النظام الذي كان يستند على العقل المستقل القادرعلى تفسير الحقيقة بشكل طبيعي، وذلك لأن القدرة الفائقة على التحريد و الإحساس القوي بالحقيقة بالإضافة إلى الوضوح والنظام والإعتدال والخضوع للتعاون سواء في السياسة أو الفن هي السمات الأساسية المميزة للعقل اليوناني"[1].

ومن جهتنا فإننا لن نقع في رد فعل إنفعالي ونقول بأن الحضارة الشرقية هي منبع الفلسفة وصاحبة المعجزات،بل على العكس من ذلك تماماً، نحن لا ننكر أصالة الفكر اليوناني، ودور شخصياته البارزه في الإرتقاء بالطريقة التقليدية في التفكير،ولاننكر كذلك بأن المفكرين اليونانيين كانوا أول من طرحوا المسائل الفلسفية بطريقة جديدة، وأنهم أول من صاغوا حلولها من جهة التفكير العقلي وحده.

بل إننا نؤكد حقيقة تأثير الشرق على اليونان،وبتعبير آخر، إننا نؤكد الواقع التالي،إن اليونانيين بعد أن تلقوا من الشرقيين مواداً أساسية كانت قد كدستها التجربة الفكرية الطويلة لهم ،فإنهم قد سلكوا طريقة جديدة في التفكير ،وما هذا الطريق الجديد إلا طريق العقل والتفكير العقلي. كما انهم قد أحرزوا بهذا الطريق انتصارات فكرية باهرة.

وفي الحقيقة لسنا الوحيدين الذي أكد هذه الحقيقة، بل إن هناك قسما كبيراً من المؤرخين الغربيين قد سبقنا إلى هذا وأثبت بدوره تلك الحقيقته بطريقة لا تقبل الجدل أو المناقشة.

ومن أهم هؤلاء أورسيل، وتوملين ، وكولر... غيرهم.

فـ "أورسيل" يؤكد هذه الحقيقة بقوله:" بأنه لم يعد يوجد في هذه الأيام من يستطيع الإعتقاد بأن اليونان وروما وشعوب أوربا في العصور الوسطى والحديثة هم دون سواهم أرباب التفكير الفلسفي،ففي جهات أخرى من الإنسانية سطعت مواطن التفكير المجرد ،وظهرت أشعتها جلياً،وانتشرت في شتى الأنحاء، ومما أن هذه المواطن لم تكن منفصلة عن بعضها البعض، كما كان يظن في الماضي، فإنه يجب الإعتراف بأن تفكير الغرب لا يكفي بنفسه ،فتفسيره التاريخي يتطلب إعادة وضعه في وسط إنساني واسع النطاق، لأن التاريخ هو وحدة التاريخ العالمي"[2].

وإذا كان البعض قد اعترض على هذا الكلام بقوله: أن النظم الشرقية كانت حلها أكثر صلة بالدين منها إلى التفكير الفلسفي.فإن أورسيل يرفض هذا الإعتراض ويؤكد" بأن هذين النوعين من التفكير قد اختلطا خلال العصور التاريخية كلها، وبالتالي فإن أية محاولة للفصل بينهما ستودي حتماً إلى جعل كليهما غير مفهوم"[3].

رقم 4

1- Zeller (Eduard) :Out Line of the history of Greet philosphy - London -1963 ppp 2-3-7-15

٢ - أورسيل (مول ماسون) : الفلسفة في الشرق - ترجمة / محمد يوسف موسى - القاهرة - دار المعارف - ١٩٤٥ - ص١٦.

Scanned by CamScanner

أما "توملين" فيؤكد حقيقة تأثير الشرق على الغرب بقوله:"إن ما يضفي على الفكر الشرقي القدم سحره الخاص به ،هو حقيقة أنه ليس مجرد كونه أعرق قدماً من الفكر الغربي، بل لأنه يعبر عن استمرار أبعد، وفي استعراضنا لتاريخ الفكر الطويل نلاحظ أن البحث الفلسفي ما هو إلا مجرد فرع ،برغم إزدهاره من شجرة العائلة الشرقية"[1].

[redacted] سفة الشرقية في إطار معاييرها

والخلاصة إنه إذا كتب تاريخ العلم القديم من دون إمداد القارىء بمعرفة كافية بهاتين الطائفتين من الحقائق، أي العلم الشرقي من جهة، والخرافة اليونانية من جهة ثانية،جاء هذا التاريخ لا ناقصاً فحسب بل مزيفاً مدخولاً كذلك"[1].

وفي الحقيقة ،إنه سواء رفض البعض حقيقة وجود الفكر الفلسفي و العلمي في الحضارة الشرقية القديمة، وقال إن هذا الفكر باطل وأن الذهنية التي انتجته متخيلة وعقيمة، أو أكد آخرون حقيقة وجود هذين النمطين من التفكير أي الفلسفي والعلمي، فإن هذا لا يهم الفكر الشرقي في شيء، وذلك لأن أي دراسة علمية موضوعية دقيقة بعيدة عن التعصب والهوى ،لا يمكن لها إلا أن تؤكد العظمة الفكرية التي قدمتها الحضارة الشرقية القديمة.

وإننا مهما فعلنا فلن نستطيع أن ننكر تلك الحقيقة الناصعة التي تؤكد أن الحضارة الشرقية القديمة قد تركت تراثاً غنياً قاد أمة كبيرة، وعبر عدة قرون، وتركت بمبادئها الإطار الفكري لملايين البشر ،وردت على أسئلة هؤلاء في ميادين الماورائيات والمجتمع، كما قدمت حلولاً كثيرة لمشكلات مصيرية وحياتية.

وبعد هذا العرض الموجز يتكشف لنا بأن الهدف الأساسي للبحث، لا يتمثل في المقارنة بين الحضارة الشرقية والحضارة الغربية، بل يتمثل في محاولة التأكيد على أن الحضارات الشرقية القديمة كانت قد احتوت الفلسفة والفكر، وكان لديها كما كان لدى غيرها فلاسفة تصدوا لمشكلات الطبيعة ونشأة الكون ،كما فكروا بالمسائل المتصلة بما وراء الطبيعة ،واهتموا بقضايا الإنسان وتحليل طبيعته، ووضعوا حلولاً لمشكلاته الأساسية.

- **وتكمن إشكالية البحث في التساؤلات التالية:**

١- هل حمل الفكر الشرقي القديم نسيجاً فلسفياً ،أوقارب هذا النسيج ؟

٢- ما هي التصورات الفلسفية التي أوجدها كل حضارة من تلك الحضارات ؟

ومن خلال محاولتنا الإجابة على هذه الأسئلة ،تبرز أهمية البحث كمحاولة لتلمس رؤية جديدة تسعى لتأكيد أصالة الفكر الشرقي القديم، وتبرز الواقع القائل :

" أن الفكر الشرقي القديم قد حمل في شخصه أفكاراً فلسفية ،ومهد عبر جملة القضايا التي طرحها للفكر الفلسفي اليوناني".

وعن منهج البحث فقد استخدمت المنهج التحليلي، وذلك من أجل دراسة العناصر المكونة للبحث، والقيام بمحاولة حل الاشكاليات المطروحة،وذلك عن طريق عرض أجزاء القضية وتقسيمها إلى مشكلات متعددة.

١- سارتون (جورج) : تاريخ العلم (العلم القديم في العصر الذهبي) - ترجمة / محمد حلف الله وآخرون – القاهرة- دار المعارف- ١٩٦٣ – ص.ص.٢٠،٢١.

رقم 6

Scanned by CamScanner